جامعـة
المنصــورة
كليــة الآداب

الثعالبي والدرس الدلالي

إعــداد

الاستاذ الدكتور / أحمـــد فلّيـــــح
رئيس قسم اللغة العربية
جامعة جرش

الدكتور / إبراهـــيم جوخـــــان
قسم اللغة العربية
جامعة جرش

مجـــلة كلـــية الآداب – جامعـــة المنصـــورة
العدد الثالث و الخمسون – أغسطس ٢٠١٣

الثعالبي والدرس الدلالي

أ. د. أحمـــــد فلـــــيح
د. إبراهـيم جوخـــان

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله.

لا مشاحة في أن المعنى عنصر رئيس في اللغة، وكل المستويات المتخلقة من اللغة، من أصوات، ومفرات، ونظام نحوي، وأسلوبي، كلها تشكل الدلالة أو المعنى، في المآل النهائي، وهي روافد يتم التقنية لها لتصب في بحر الدلالة الغاية القصوى، وأية منظومة لغوية لا تنطوي على معنى مستجمع لا قيمة لها.

ونمو علم الدلالة الحديث وتشعب مقارباته المنهجية، جعله قطب الدوران في كل بحث لغوي[١].

والموئل المشتهر للمقاربات الدلالية هو المعاجم.

ولكن لماذا الحاجة إلى المعاجم؟ مع أن الأصل أن المتكلم بلغته القومية لا يحتاج فيها إلى شرح لفظ، أو بيان معنى كلمة. لماذا هذه المراكمة من الكنوز اللفظية المفرداتية في مطاوي تلكم المعاجم التي نسلت من أنباه العلماء، وكبار الوعاة، التي أنقضت ظهورهم، وكدت نفوسهم. أسئلة مشروعة مع أن الأصل في ألفاظ اللغة أن تكون كلها مفهومة من الناطقين بهذه اللغة، المتداولة بينهم، الجارية على ألسنتهم، لا يحتاجون إلى إيضاح شيء منها، ولا يسألون عن شرح أي كلمة فيها[٢].

وليس من اليسير التصدي لهذه الأسئلة بإجابات مقنعة، وولكن قد يقال ها هنا، إن اللغة العربية أضحت متعلمة، وليست سليقة في جبلة المتعلمين، ثم لعل الألباء من العلماء كانوا حراصاً على نقل اللغة إلى الآخرين المتعلمين بخطاب توضيحي مقنع، ينمي الثروة اللغوية، بالطريقة السليمة، لما سمت نفوسهم إلى إقامة الناس على محجة

الفصحى، ومراكمة رصيد لغوي يسعف المتكلم والمتعلم، ويفضي إلى تنامي الأداء بوتائر لغوية سلسلة يمتح منها المتلقي ساعة يستفرغ أداء فكرياً معلوماً.

فالمعجم اللغوي حافظة لكنوز اللغة، ورافعة للسوية العلمية، يفزع إليه العلماء بله الشداة كلما حزبهم إشكال في غموض مفردة، أو وقع لهم لبس في معنى، وهي تستجمع منظومة من البصائر اللغوية في نواميس العربية وسننها.

ولا مراء في أن الصناعة المعجمية العربية مرت في أطوار مشهودة إلى أن تناهت إلى هذه الصورة، المتسقة مع المطالب المنوطة بها، على أنها ما انفكت تنطوي على نقائص تنتظر من أهلها أن يشمروا للنهوض بالوفاء لهذه الرسالة.

ومن التتبع استظهرنا ثلاثة أطوار مرت بها صاعة المعجم العربي ومنها:

أ. الرسائل اللغوية التي تتمحور حول معانٍ بعينها، تورد لها جملة من الأسماء والصفات، ترفد المتلقي بثروة لغوية عريضة، نستحضر منها خلق الإنسان للأصمعي (ت ٢١٠هـ).

وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٩٠هـ).

وكتاب الخيل لقطرب (ت ٢٠٦هـ).

وكتاب الوحوش لأبي حاتم السجستاني (ت ٢٢٥هـ).

أسماء البئر وأسماء الخيل لابن الأعرابي (ت ٢٣٢هـ).

وغيرها كثير، فقد أخذ اللغويون، في هذه الحقبة يحصرون مادة اللغة العربية في مجاميع على شكل رسائل، تحتوي كل منها على الألفاظ الخاصة بموضوع معين[٣].

ومن الواضح أن الهدف من هذه الرسائل تعليمي، لأنه يقدم للمتأدبين الطرائق المختلفة لاستعمال الألفاظ، ولعل هذه الدراسة الوصفية تندرج تحت ما يسميها

المحدثون الدراسات الأسلوبية[٤]. وهو نمط من التلقي الإحيائي للغة، يجذرها في نفوس القراء والمتلقين، ويمد فيها نسغ الحياة والانتشار.

ب. وظهرت مصنفات أخرى جامعة لمادة اللغة، مرتبة بحسب الموضوعات، وتعد تجديداً في هذه الصناعة لكونها خالفت ما مرد عليه العلماء في منهج الصناعة المعجمية والدرس الأسلوبي في ذلك الإبان، وتعد تجديداً في سنن هذه الصناعة ونواميسها ومنها: كتاب الألفاظ لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ).

ولعله أقدم ما ألف على هذا الصعيد ومنها: مبادئ اللغة للإسكافي (ت ٤٢١هـ) وحققه عالمان جليلان الأستاذ الدكتور يحيى عبابنة، والأستاذ الدكتور عبد القادر الخليل.

ومنها: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ) ثم المعجم الموضوعي الشامل الموسوم بالمخصص لابن سيدة الأندلسي (ت ٤٥٨هـ) ويقع في سبعة عشر مجلداً. ولعله من أوفى المعاجم المعنوية بقسميها الرسائل اللغوية المقتصرة على طائفة من المعاني، أو الموسوعات اللغوية التي تعنى ببيان المفردات والألفاظ الموضوعة للمعاني[٥].

وتتبع أهمية المعاجم المعنوية أن المرء قد يخطر بباله معنى لا يجد له لفظاً أو كلمة تناسبه، فينتجع هذه المعاجم المعنوية التي توفر له اللفظة المفصلة للمعنى الذي راود ذهنه فيجد ضالته في المعاجم الموضوعية الآنفة المرتبة على حسب الأفكار، أو الموضوعات، أو المعاني، ومبلغ الانتفاع، وسرعة التأتي تنبثق من ترتيب هاتيك المعجمات بما ييسر ويسرع الانتفاع.

وهذا القسم من المعجمات يرجع إليه من يعرف معنى ويرغب في الوقوف على الألفاظ الموضوعة له[٦] كما أسلفنا.

وهي على عكس النوع الآخر من المعجمات العربية، التي ترمي إلى شرح معاني المفردات.

وتتوقف مقاربتنا في هذه الورقة لدى مصنف مشتهر لمؤلف فذ هو الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ. في مصنفه الذي وسمه بفقه اللغة وسر العربية، وأسمع وأبصر بالثعالبي ومصنفه.

وأسئلة هذه المقاربة تشكل فضاء لهذه القراءة ومنافذ لتجليته ومنها: من هو الثعالبي؟ وما أظهر تصانيفه؟ ومنهج الثعالبي.

لماذا سخى بنفسه عن كثرة الشواهد؟ ما هدف هذا المصنف وما صحة إدراجه في مبحث فقه اللغة. وفي أعقاب ذلك نستظهر نماذج من معطياته، ونختم بتعليقات عمومية.

الثعالبي: هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي النيسابوري كان واعية كثير الحفظ، لقب بجاحظ زمانه.

يجمع الدارسون على أنه ولد سنة خمسين وثلاث مئة وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمة مئة، ترك ما يربو على ثمانين مؤلفاً بمقدار سني عمره، وفي أسماء كتبه خلط وتداخل، ورجع نظر، وتقتضي التمحيص والتدقيق.

فقه اللغة وسر العربية:

اصطنع الثعالبي، رحمه الله، اسم كتابه فقه اللغة، تعسفاً وتجاوزاً، ففقه اللغة يفارقه كثيراً، فموضوع فقه اللغة يجمع إلى دراسة اللغة دراسات تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد، والنتاج الأدبي للغات(٧).

وفقه اللغة لأبي منصور الثعالبي معجم من المعاجم اللغوية رتبت فيه المادة ترتيباً معنوياً، لا على ترتيب حروف الهجاء، فهو يرتب المادة اللغوية، أي يجمع الألفاظ

التي تستعمل في موضوع واحد، وفائدته لمن يعرف معنى من المعاني، ويتطلب فيه اللفظ الدال عليه، بخلاف معاجم الألفاظ، التي يراد منها البحث عن معاني الألفاظ التي يريد الباحث تفسيرها.

فهو من نوع الكتب التي من شأنها أن تمد الكاتب بعبارات بليغة يستعملها في إنشائه، فقيمته وقيمة أشباهه من المؤلفات عملية تطبيقية صرفة، وليس فيها شيء من فقه اللغة[٨].

ويعد كتاب فقه اللغة وسر العربية نموذجاً في منهج متميز في صناعة المعاجم العربية التي ظهرت، ولعله كان ممهداً لولادة معجم ضخم في هذه الصنعة هو المخصص لابن سيده، الذي لاقى رواجاً وعناية يستحقهما وذاك جعلنا نعتد الثعالبي علماً من أعلام التجديد في صناعة المعاجم المعنوية، مع أنه كانت له إرهاصات تقدمته إلا أنه شآها ومهد لمن تبعه، وجلها كان وليد العصر العباسي الذهبي.

منهجه:

استهل المؤلف هذا المعجم اللغوي المعنوي بمقدمة ضافية تمدح بها العربية فقال: من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، التي نزل بها أفضل الكتب، على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها[٩]. وانتقل عقيب ذلك إلى ثبت الأبواب بلغت عدتها ثلاثين باباً.

والكتاب، كما هو معلوم، في قسمين: القسم الأول، وهو موضع درسنا، وسمه بفقه اللغة، وجعل الثاني باسم: سر العربية.

وقسم كل باب إلى فصول.

وجعل مستهل كل فصل سند الرواية، ومرجعيته، فلجوا معي أحد الأبواب والفصول المبثوثة في مطاويه، لنستجلي المعطيات الثرة التي استعجمعها المؤلف.

الباب الأول في الكليات، قال: كل ما علاك فأظلك فهو سماء، وكل أرض مستوية فهي صعيد، وكل حاجز بين الشيئن: فهو موبق، وكل بناء مربع فهو كعبة، وكل بناءٍ عالٍ فهو صرح... وهلم جراً.

ثم ينتهي إلى الفصل الثاني في ذكر ضروب من الحيوان، ويشفعها بأسماء العلماء الذين نقل عنهم: عن الليث وعن الخليل، وعن أبـي سعيد الضرير، وابن السكيت، وابن الأعرابـي، وغيرهم من الأئمة، فقال: كل دابة في جوفها روح فهي نسمة وكل كريمة من النساء والإبل والخيل وغيرها فهي: عقيلة.

والفصل الثالث من الكليات في النبات والشجر.

وسلسلة الرواة هي: عن الليث وعن الخليل، وعن ثعلب عن ابن الأعرابي، وعن سلمة عن الفراء، وعن غيرهم، قال: كل نبت كانت ساقه أنابيب وكعوباً فهو: قصب وكل شجر له شوك فهو: عضاه... وهكذا من غيرما ترتيب يلزها معاً في قرن واحد إلا جامع كلمة (كل)، ويحار المراجع كيف يجد ضالته في هذه الأكوام.

والفصل الرابع في الأمكنة، والخامس في الثياب، والسادس في الطعام والسابع في فنون مختلفة الترتيب.

وكل فصل يبدأ بكلمة كل: كل ريح تهب بين ريحين فهي نكباء، كل ريح لا تحرك شجراً، ولا تعفي أثراً فهي نسيم(١٠).

بيد أنه في الفصول الثامن والتاسع، والعاشر، والحادي عشر والثاني عشر، والثالث عشر والرابع عشر، لا يضع لها عناوين، كالتي سلف الكلام عليها بل يثبت في فواتح

الفصل (عن) كأن يقول: عن أبي بكر الخوارزمي، عن ابن خالويه كل عطر مائع فهو ملاب، وكل عطر يابس فهو الكباء.

وأحياناً يقول: عن الأئمة. كل شيء جاوز الحد فقد طغى.

وفي الفصلين العاشر والحادي عشر لا يبدأ بكلمة كل بل يقول: اقتمّ ما على الخِوان: إذا أكله كله.

أو: ولد كل سبع جرو، وولد كل طائر فرخ، وغرة كل شيء أوله وفي الفصل الرابع عشر يستأنف قائلاً:

الجم: الكثير من كل شيء، والعلق النفيس من كل شيء(١١).

ولا مراء أن مثل هذه المعاجم تسهم بشكل جلي في تنمية الثروة اللغوية لدى المتعلم، بأسلوب وظيفي ناجع، وترفد المبدعين بمعاجم لغوية، وثروة هائلة في عددٍ جم من الموضوعات.

وربما مال الثعالبي إلى أسلوب آخر في سرده للكلمات، كيما يزيح السأم عن القارئ، وذلك بأسلوب (لا) لبيان الشيء وضده قال في الباب الثالث: في الأشياء التي تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها:

لا تقال كأس، إلا إذا كان فيها شراب، وإلا فهي زجاجة، ولا يقال: مائدة إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فهي خِوان.

ولا يقال: كوز إلا إذا كانت له عروة، وإلا فهو كوب.

ولا يقال: خاتم إلا إذا كان فيه فص، وإلا فهو فَتْخة(١٢).

وفي أحايين أخرى ينفى ولا يذكر المعادل.

لا يقال للمرأة ظعينة: إلا ما دامت راكبة في الهودج.

ولا يقال للثوب: حلة إلا إذا كان ثوبين اثنين من جنس واحد(١٣).

وأحياناً ينفح المتلقي بباب من الأضداد نافع.

باب أوائل الأشياء وأواخرها:

صدر كل شي وغرته أوله، فاتحة الكتاب أوله، ريّق الشباب أوله. ثم يعقبها في فصل الأواخر:

الغلس والغبش: آخر ظلمة الليل. الكيّول: آخر الصف.

وينفحنا بباب آخر من الأضداد، الباب الخامس، في صغار الأشياء وكبارها، وعظامها، وضخامها.

الغوغاء: صغار الجراد، والفسيل: صغار الشجر.

ثم ينقلك إلى أضدادها في فصل: في الكبير من عدة الأشياء: الرس البئر الكبيرة، والقُلة الجرة الكبيرة والخنجر السكين الكبير، ومن ثم ينقلك في الفصل الرابع إلى الشيء العظيم، السور: الحائط العظيم، الرتاج الباب العظيم والصخرة الحجر العظيم، والفيلق: الجيش العظيم.

ولدى تعاطي الدارس مع هذه المعطيات، ينمي ثروته، ويصله الثعالبي بعندياته اللغوية، التي ينسلها من تلقاء محفوظاته، أو من لدن العلماء الآخرين.

وخصص الباب السادس للطول والقصر.

والسابع في اليبس واللين، والثامن في الشدة والشديد من الأشياء والتاسع في القلة والكثرة، والعاشر في سائر الأحوال والأوصاف المتضادة وهو من أطول الأبواب، إذ جعله في ثمانية وثلاثين فصلاً.

والحادي عشر في الملء والامتلاء والصفور والخلاء، والثاني عشر في الشيء بين الشيئين، والثالث عشر في الألوان والآثار، والرابع عشر في أسنان الناس والدواب.

والخامس عشر في الأصول والرؤوس والأعضاء والأطراف وهو أطول الأبواب، إذ جعله في خمسة وستين فصلاً.

منها فصل في تقسيم الشعر وهو الخامس، قال: الشعر للإنسان وغيره والمِرْعِزيّ والمرعزاء للمعز، والوبر للإبل والسباع، والصوف للغنم، والعفاء للحمير، والريش للطير، والزغب للفرخ، والزِّف للنعام، والهُلْب للخنزير.

ثم يجعل الفصل السادس في تفصيل شعر الإنسان.

العقيقة: الشعر الذي يولد به الإنسان، الفروة: شعر معظم الرأس والناصية شعر مقدمة الرأس، والذؤابة شعر مؤخر الرأس، والفرْع شعر رأس المرأة... والهُدْب شعر أجفان العينين، والشارب شعر الشفة العليا، والعنفقة شعر الشفة السفلى... وهكذا دواليك.

ويأتي على تفاصيل جسم الإنسان من محاسن وعيوب.

ويتحدث في الفصل التاسع والعشرين عن بعض اللهجات التي سماها عوارض ألسنة العرب، ومنها الكشكشة، والكسكسة، والعنعنة، واللخلخانية والطمطمانية[١٤].

وهكذا ينقلك الثعالبي من علم إلى علم وتلج معه أبواباً متنوعة حتى يفضي بك في آخر المطاف إلى الباب الثلاثين في فنون مختلفة الترتيب في الأسماء والأفعال والصفات، فيجعل الفصل الأول في سياقة أسماء النار، ناقلاً عن ثعلب، عن ابن الأعرابي.

وفي الفصل الثالث: في الدواهي، قال: وقد جمع حمزة من أسمائها ما يزيد على أربعمئة، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من إحدى الدواهي وذكر منها: نازلة، ونائبة وحادثة وآبدة، وداهية، وباقعة، وبائقة، وحاطمة، وفاخرة... إلى آخره.

وهذا الفصل مؤشر على أخذ الثعالبي بفكره الترادف في العربية، وتأييدها.

وينقلنا الشيخ إلى فصل من الأضداد وهو السادس عشر الموسوم بـ "تسمية المتضادين باسم واحد".

الغريم: المولى والزوج، والبيّع. والوراء يكون خلف وقدام.

الصريم: الليل والصبح، والجلل: اليسير والعظيم، والجون الأسود والأبيض(١٥).

ولو رجعنا النظر، وحدقنا في الأبواب والبصائر اللغوية، التي انطوى عليها المعجم لوجدناها تتمحور حول الإنسان خلقه وصفاته، ولعل الشيخ الجليل أهطع لنداء البارئ، عز وجل (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)، وتتبع صفات الذات وأحوالها، ما حسن وما ساء، ثم أعقبها بذكر نعوت الحيوان، ثم التبصر في مخلوقات الله وعظمته في الآثار العلوية من برق ورعد ومطر وسحاب، والآثار السفلية في الأنهار والجبال والآبار والحياض، وتراب، وغبار ورمال، وزرع ونخيل، فجاء جل المعجم ينتظم هذه المعطيات، ويتمحور حولها.

ومن الطريف أن الثعالبي جعل الباب التاسع والعشرين: فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية، وجعله في خمسة فصول، منها أسماء عربية فارسيتها منسية وعربيتها محكية مستعملة، وفسل يناسبه في أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها ومنها الجبت والطاغوت وإبليس، والسجين والغسلين. وجعل فصلاً في أسماء قائمة في لغتي العرب والفرس على لفظ واحد ومنها التنور، والزمان، والدين، والكنز والدينار والدرهم. وجعل الفصل الرابع في الأسماء المعربة من الفارسية وهي في الأواني ومنها: الكوز، والإبريق والطست، والخِوان، والطبق، والقصعة، والسُّكُرُّجَة. ومن الملابس السمور، والسنجاب، والقاقم، والفنك، والدلق، والخز، والديباج، والتاختج.

وبعضها من الجواهر مثل الياقوت، والبلور.

وبعضها من ألوان الخبز مثل السميذ، والدرمك، والجردق، والكعك وبعضها من الرياحين مثل: النرجس والبنفسج، والنسرين، والخيري والسوسن، والياسمين، والجلنار.

وبعضها من الطيب مثل: المسك، والعنبر، والكافور، والصندل، والقرنفل. وفي كثير من هذه الأسماء تقتضي التحقق، ورجع النظر.

وجعل الفصل الخامس مما نسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية.

ومنها الفردوس: البستان.

ومنها القسطاس: الميزان.

ومنها السجنجل: المرآة.

والبطاقة والقبان، والاصطرلاب، والقسطرى، والجُهبِذ والقسطل أي الغبار، والقنطار والبطريق أي القائد، وغيرها[١٦].

وفي قراءة لهذه المعطيات قد يتبادر إلى الفهم أن الثعالبي كان يعرف الفارسية، وشيئاً مما سماه الرومية، وهذا أيضاً يقتضي التحقق والتوثق.

منهج الكتاب وخطته:

١. اجترح الثعالبي لنفسه منهجاً لاحباً أخذ نفسه به، ولا يحيد عنه البتة، إذ جعل مصنفه مفرقاً على أبواب، حيثما اتفق، والأبواب مقسمة إلى فصول بتراتيب غير مؤصلة على منهج مألوف لدى أصحاب المعاجم المفرداتية. لذا يتعذر على المستخدم الانتفاع السريع بمعطيات هذا المعجم، فلا بد من بذل جهد ووقت للوصول إلى ضالته.

٢. توكأ على عدد من العلماء السابقين في الرواية، من غير أن يحدد مواقع النقل بالمصادر المتعينة، فلا يتاح للمتتبع التحقق من صحة المعلومات، أو التوثيق. ففي هذا المجال خلط في الرواية، ولبس في المناهج. وهذا ملحوظ أيضاً في جل أصحاب هذا المذهب المعجمي.

ومن يحدق في كتاب مبادئ اللغة للإسكافي (ت ٤٢١هـ) يلحظ مثل هذا الخلط والتراخي في التوثيق والمرجعيات[١٧].

بيد أنه حين يستشهد بالشواهد الشعرية، فإنه في الغالب كان يعزوها إلى قائلها، وهذا مما يحمد له[١٨].

أما الثعالبي فالمفردات التي يشك فيها يسندها مباشرة إلى مصادرها (٥٧، ٥٨، ٦٤) استبراء للذمة (الثعالبي ٥٧، ٥٨، ٦٤، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٢٩٠).

٣. الرواية لدى الثعالبي.

يذكر الثعالبي في بداءة الفصل عمن أخذ أحياناً.

فيقول: عن: الليث وعن الخليل، وعن ثعلب عن ابن الأعرابي، وعن سلمة عن الفراء، وعن غيرهم. ولكنه لا يعين أماكن الأخذ، وأحياناً تجده يزهد في الرواية فيرسلها، عن الأئمة وأحياناً يهملها ويتركها غفلاً، وإخاله أنه يركن إلى عنديانه كما قد يفهم من ذلك[١٩] وأحياناً تجده يقول: سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول. أو سمعت العرب تقول، أو عن الزجاج، وقال المؤرج، استبراء للذمة.

٤. شواهده: جل الشواهد في مطاوي المعجم شعرية، استشهد لعدد من الشعراء في عصر الاحتجاج من أمثال امرئ القيس في وصف الفرس الجموح.

جموحـــاً مروحـــاً وإحضـــارها كمعمعـــة الســـعف الموقـــد[٢٠]

واستشهد بشعر زهير، وعبيد بن الأبرص والأعشى في قوله في الكساء:

إذا جـردت يومـاً حسـبت خميصـة عليهـا وجـرياال النضـير الدُلامصـا

وقد ينشد لبعض الأعراب:

مـــــن يـــــك ذا بـــــت فهـــــذا بنـــــي

مصـــــــيف مقـــــــيظ مشـــــــتي[٢١]

واستشهد للشاعر لبيد بنصف بيت وأحياناً ببيت[٢٢].

واستشهد للنابغة في الألوان[٢٣] وفي الغالب يعزو الشعر إلى قائله.

ويستشهد أحياناً بشعر من خارج عصر الاحتجاج، مثل ابن الرومي والبحتري، وأبي تمام[٢٤]. وهو قليل.

والثعالبي لا يعول على الرواية بالمشافهة، في جل مروياته، بل ربما كان يأخذ مختاراً من المصنفات المبذولة لديه في ذلك الإبان، فينتقي ويسند إلى العالم، من غير إشارة توثيقية إلى عنوان المصدر.

الخلاصة

١. نجم في العصر العباسي منهج متجدد في الصناعة المعجمية، القائم على المعنى، وليس على تفسير المفردات الشائع وقتئذٍ، أذن به عدد من العلماء، منهم الثعالبي في مصنفه فقه اللغة وسر العربية، استهدف بمحتوياته، العلماء، بله الشداة، لتمكين العربية الفصحى في نفوسهم. فهو مصدر ثر يغني الدارس، ويعزز العربية في سلوكه، بحزم لغوية سابغة، تشكل منظومة لغوية أصيلة صحيحة فصيحة، تسعف في رفع السوية وتحسينها.

٢. كتاب فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ليس كتاب فقه لغة، على نحو ما ألمحنا في فواتح الدراسة، فقد استفرغ المؤلف جهوداً معجمية في القسم الأول من الكتاب ترشحه لأن يكون رائداً واعداً لعلم الأسلوبية الوظيفي التطبيقي، أما إذا عنى الثعالبي بفقه اللغة، تعليم اللغة من باب المعجمية، بصورة ابتدائية، فهذا شأن آخر، ولا ينسجم وأدبيات فقه اللغة.

٣. يشير صنيع الثعالبي وأقرانه في هذا الصدد إلى غنى العربية الذي لا ينضب بالبدائل المفرداتية العريضة التي تغطي كل مجالات الحياة، وتعبر عنها بدقة، ومن غير تجهم أو تعبس.

٤. نوجه دعوة إلى الحراص على العربية والغير على سيرتها، للنهوض برسالة إعادة ترتيب هذه المعاجم المعنوية، ولا سيما "**فقه اللغة**"، على وفق منهج ييسر الانتفاع به بسرعة ويسر.

٥. أذن الثعالبي في معجمه ببعض الدلالات الحضارية، فضلاً عن الدلالات المعجمية، فأورد جملة من القضايا الجمالية في حسن المرأة، وحسن الخيل والإبل، للعلاقة النفسية الحميمة، واللحمة القوية معها، وفصل كثيراً في ضروب الشجاعة والرجولة التي تشخص قيم عصره.

٦. ثمة إشارات إلى بعض اللهجات العربية القديمة، وبعض الأدواء، ومنها السرطان وغيره. ثمة دلالات ثقافية شاخصة ملموحة تشكل مؤشرات ثقافية ومنها: الفَرَع أول ما تنتجه الناقة، وكانت العرب تذبحها لأصنامها، تبركاً بذلك[٢٥]. ومنه قوله: خرفجتُ السراويل. قال أعرابي لخياط أمره بخياطة سراويل له: خَرْفج مُنطّقها، وجدّل مُسوّقها، أي: وسع معظمها، وضيق مدخلها[٢٦]. وذلك كثير في ثقافة اللباس، والفرش، والأكسية.

وأخيراً لا مندوحة من القول، تطلب الإنصاف، إن جمهرة هذه الألفاظ والتراكيب التي انتظمها فقه اللغة للثعالبي، إما موات مهجور، وإما مألوف ميسور، ولكنه يظل تذكرة وتفعيلاً، للتواصل وتثمير المنجز لاستيعاب الموروث الثقافي بأريحية.

ومع هذه الهنات الهينات، فلا نقدر أن نغمط هذا الجهد، في هذه المعلمة الثقافية، التي ترفد ثقافتنا، وتؤصلها، وتغنيها بأمداد لغوية أصيلة، لتجذر المتلقين في مفاصلها.

والحمد لله أولاً وآخراً

هوامش الدراسة

١. عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، ص ٢١.

وينظر: بالمر: علم الدلالة، ترجمة محمد الماشطة، ٨.

أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص ٢٧٩؛ فوزي الشايب: محاضرات في اللسانيات، ٤٣١.

٢. حسن ظاظا: كلام العرب، دار النهضة العربية، ١١٧.

٣. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ٢٣٠.

٤. عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية، ١٦٣.

٥. حسن ظاظا: كلام العرب، ١٢٤.

ماريوباي: أسس علم اللغة، ترجمة د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ص٤٤.

والمعاجم العربية: د. حسين قورة، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، مجلد ٢٦ كانون الثاني ١٩٩٢، ص ٧٤.

٦. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٨١.

علي عبد الواحد وافي: علم اللغة، دار نهضة مصر، طبعة سابعة، ٧٤.

حسين نصار: المعجم العربي، دار مصر، ١٩٨٨م، ١/١٠٥-١٠٧.

٧. ماريوباي: أسس علم اللغة، ص ٣٥.

٨. بول كراوس: فقه اللغة للثعالبي، المقدمة، ص ١٧.

٩. الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، ٢١.

١٠. الثعالبي: نفسه، ٤٠.

١١. الثعالبي، ٤٣-٤٤.

١٢. نفسه، ٥٠-٥١.

١٣. نفسه، ٥٢.

١٤. نفسه، ١٢٩.

١٥. نفسه، ٣١٥.

١٦. نفسه، ٣٠٥-٣٠٧.

١٧. مبـادئ اللغـة: الخطيـب الإسـكافي، طبعـة أولـى، ٢٠٤، ٢٠٩، ١٧٨، تحقيـق د. يحيى عبابنة و د. عبد القادر الخليل.

١٨. نفسه، ٣٣٢، ٢٨٧، ١٥٤، ١٥٥، ١٧٨.

١٩. الثعالبي، ٣٧، ٤٠، ٤٣، ٤٧، ٨٣، ١٦٥.

٢٠. الثعالبي، ١٧٢.

٢١. الثعالبي، ٢٤٨.

٢٢. الثعالبي، ٢٤٩، ١٩١.

٢٣. الثعالبي، ٩٨، ٢٢١.

٢٤. الثعالبي، ٢٥١، ١٩٤.

٢٥. نفسه، ٥٥.

٢٦. نفسه، ٧٣.